برنامج [قـرآنـهـم] - الحلقة (7) سورة الأعراف ج (4)

الثلاثاء : 10 شهر رمضان 1438هـ الموافق : 2017/6/6م

✤ مرّ الكلام في الآيات التي تناولت حواراً بين إبليس وبينه تعالى.. قال: {قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنّك من المُنظَرين* قال فبما أغويتني لأقعُدنَّ لهم صراطكَ المُستقيم* ثُمَّ لآتينهم مِن بين أيديهم ومِن خلفهم وعن أيمانهم وعَن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين* قال اخرجْ منها مذؤوماً مدحورا لَمَن تبعكَ منهم لأملأنَّ جهنَّم منكم أجمعين}

وقد وصلنا إلى قولهِ تعالى: {ويا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجكَ الجنّة فكُلا مِن حيثُ شِئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}

لازلتُ في تناول الآياتِ القُرآنية في سُورة الأعراف وفي سُورٍ أخرى.. وكما ذكرت فإنّي أتناولها بنحوٍ عام.. هو استعراضٌ لِمُجمل معانيها، وبعدها أعود للتدقيق وتسليط الضوء على أهمّ ما جاء في هذه الآيات الشريفة.

●كما بيّنت.. فإنّ قصّة أبينا آدم ذُكرتْ في أكثر مِن سورة مِن سُوَر القرآن، وسأمرّ على أهمّ المقاطع التي تحدّثتْ عن قصّة الخلافة (خلافة آدم).

■ {ويا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجكَ - أي أُمّنا حوّاء - الجنّة فكُلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}

قولهِ تعالى: {وزوجكَ}أي أُمّنا حوّاء، الزوجُ في العربية استعمالها أبلغُ وأفصحُ مِن الزوجة.. نعم شاع في العصور المُتأخرة استعمالُ (الزوجة) ولكن تعبير (زوج) أفصح وأبلغ. وكما ذكرت فإنّ هذه الجنّة التي ذكرت في الآية ليست هي الجنّة التي يخلد فيها الخالدون يوم القيامة.. وجنانُ يوم القيامة ليس لها عدد محدود.. فالجنان لا حصر لها ولأعدادها المُتزايدة.. فالجنّة في تزايد وفي اتّساعٍ وفي علوّ ما دام الخالدون خالدين فيها.. ولا يَخلد الخالدون فيها من المؤمنين والمؤمنات إلّا بعد الانتماء إلى الخالدين العالين.

■ إذا رجعنا إلى دقيق ثقافة آل مُحمّد سنجد أنّ مُصطلح (المؤمن) هو اسمٌ من أسمائهِ تعالى خصّه تعالى بـــ(عليّ) وإنّما مُنِح لأشياعهِ ومُحبّيه عِبر التأريخ.. فإنّ عليّاً كان مع كُلّ الأمم (كُنت مع الأنبياء باطناً).

■ الجنّة التي أشارتْ إليها قصّة أبينا آدم هي طبقة مِن طبقات الملأ الأعلى.. منزلةٌ مِن منازل العوالم العلوية، وردتْ إشاراتٌ في بعض الروايات من أنّها جنّة ما بين السماء والأرض ومثل هذه التعابير تقريبيّة وهي تُشير إلى أنّ هذه الجنّة ليستْ مِن سِنخ العوالم الأرضية الترابية.. وإنّما هي موضع للملائكة، وإبليس كان فيها قبل أن يدخلها أبونا آدم وأُمّنا حوّاء، ويبدو ذلك مِن الحوارات التي دارت فيما بين أبينا آدم وإبليس فيما جاء في الأحاديث المعصوميّة الشريفة

● قوله تعالى: {فكُلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة}. ما جاء في الروايات مِن أنّ هذه الشجرة هي شجرة الحنطة، هذه صورةٌ للشجرة التي هي في حقيقتها شجرة العلم، والتي عُبّر عنها في رواياتٍ أُخرى بـ"شجرة الحسد".. والمُراد من شجرة الحسد ليس الحسدُ بنفسهِ، فليس للحسد مِن شجرةٍ في تلك الجنّة.. ولكن شجرة العلم لها وجوه، ومن وجوه شجرة العلم وشؤونها صورةٌ وتجلٍّ عُبّر عنها بـ"شجرة الحسد".. فهذه الشجرة (شجرة العلم) . فإن كانتْ مِن صُورةٍ لهذهِ الشجرة ظهرتْ في شجرة الحنطة، فهذا تجلٍّ، وهذهِ صُورة مِن صُورها التي لا حصر لها.

● الباري تعالى أعطى لأبينا آدم وأُمّنا حوّاء حُريّةً كاملة.. فقط تُقيّد هذه الحُريّة عند هذه الشجرة..

كُل الأشجار أنتم أحرار في التعامل معها، ولكنّ هذه الشجرة لها خُصوصيّة، فهذه الشجرة تختلف عن كُلّ الأشجار، هذهِ الشجرة هي التي أُشير لها في دعاء النُدبة الشريف، حين يقول الدعاء على لسان رسول الله: (أنا وعليٌ مِن شجرةٍ واحدة، وسائرُ الناسِ مِن شَجَرٍ شتّى) شجرةٌ مُميزة.. لا تُقاس بها شجرةٌ أخرى. هذهِ الشجرة التي تحدّث عنها دعاء النُدبة الشريف هي عنوانٌ لشجرة أبينا آدم التي جاءت في هذه القصّة.

● قوله تعالى: {فتكونا من الظالمين}. مرّت الآيات الأولى مِن سُورة الأعراف وهي تتحدّث عن ظُلم، وقلتُ في حينها: أنّ الظلم الذي تتحدّث عن آيات الكتاب الكريم حين يُنسَب إلى الله هو ظُلم أوليائه، فظُلمُ أوليائه يُنسبُ إليه.. لأنّ الظُلم لا يَصِل إلى الله.

{فتكونا من الظالمين} إنّه ظُلمٌ لأنفسهم، وهو ظُلمٌ لأولياء الله (لأصل الشجرة) وهو ظُلمٌ لله تعالى لأنّ الله تعالى ينسبُ ظُلْمَ أوليائهِ إليه.

■ قوله تعالى: {فوسوسَ لهُما الشيطان ليُبدي لهما ما وُوريَ عنهما مِن سَوآتهما وقال ما نَهاكما ربُّكما عن هذهِ الشجرة إلّا أن تكونا مَلكينِ أو تكونا مِن الخالدين}. الوسوسة هُو الحديث الخفيّ.. وسوس فلانٌ لفلان أي أوصل له المعنى بشكلٍ خفي غير ظاهر.. ولربّما عبارة "الشيطان" قد تنسجم مع الوسوسة، حين يُقال: أنّ الشيطانَ شيءٌ طنَّ على البال! وفي كُتب اللّغة الشيطان هو البعيد، وإبليس طرده الله تعالى وأبعده فقال له: {اخرجْ منها مذؤوماً مدحورا}.. الشيطان هو ذلك الكائن الذي يدفع الإنسان إلى كُلّ شرّ ويُحاول أن يَمنعهُ عن كُلّ خَير.. هذا هو الكائن الشيطاني أصله إبليس.

● هذه الآية {فوسوسَ لهُما الشيطان...} تتحدّث عن مسألةٍ مُهمّة جدّاً..!
هنا مِفكّ مِن مفكّات قصّة أبينا آدم.. فقصّة أبينا آدم قصّة عميقة، وليست قصّة بهذه الصورة التي تغلبُ عليها السذاجة كما تبدو مِن أوّل وهلة.
أبونا آدم وأمّنا حوّاء في قصّتهما هذهِ مَراحل التَكوين، مَراحل الخِلْقة.. فحين كانا في الجنّة ما كانا يَحتاجانِ إلى الشهوةِ الجنسية وإلى الأجهزة التناسلية، ولكن بعد أن أكلا مِن الشجرة تكاملا جِنسياً في الخلقةِ استعداداً في النزول إلى ال مأرض..!
فآدم ليس كما يحضر في الأذهانِ دائماً أنّه عُوقِب بالإنزال إلى الأرض.. آدم قبل أن يُخْلَق كان مَشروعاً للخلافة في الأرض {إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة} هذا البيان وهذا المشروع كان قبل خِلْقة آدم.. فآدم أساساً خلقهُ اللهُ للأرض.
● قوله تعالى: {فوسوس لهما الشيطان ليُبدي لهما ما وُوريَ عنهما مِن سَوآتهما} هما أصلاً ما كانا يعرفان أنّهما سيملكان أعضاء وأجهزة تناسلية..!
وقفة عند حديث الإمام الصادق "عليه السلام" في [تفسير البرهان : ج3] في معنى هذه الآية (كانت سَوآتهما لا تبدو لهما فبدتْ، يعني كانت مِن داخل) يعني أنّ الأعضاء التناسلية ما كانت موجودة.. كانت داخلية، كما يقول الإمام.
ولكن الطبيعة الفسلجية التناسلية لأجسامهما كانت مُهيّأةً، ولذلك الإمام يقول: كانت من داخل. فالقِصّة ليستْ قِصّة ملابس وثياب، وأنّ الثياب تساقطت.. وإذا ورد هذا في القِصّة فتلك رموز تقريبية.. فأصل الحكاية هو هذا. علماً أنّ الوسوسة هذهِ هي جزءٌ مِن خِلْقةِ آدم. فآدم الإنسان أبونا قصّته تبدأ على الأرض، أمّا ما حدث في الجنّة قبل النزول إلى الأرض، فهو حديث عن مراحل التَكوين والخَلْق.
● {فوسوس لهما الشيطان ليُبدي لهما ما وُوريَ عنهما - ما خفي عنهما- مِن سَوآتهما} السَوءةُ هي كلّ شيءٍ يسوء الإنسان أن يظهرَ منه، وإذا ما ظهر مِن الإنسان فإنّه يَعودُ على الإنسان بمعاني تُؤدّي إلى نسبة العيب إليه .. وبالمُجمَل السَوءة: هي العَورة، وإنْ كان في "السَوءةِ" دلالاتٌ أعمق من العورة. الشيطان وسوس إليهما كي يُمهّد لهذا الحوار حين قال لهما:
{وقال ما نَهاكما ربُّكما عن هذهِ الشجرة إلّا أن تكونا مَلكينِ أو تكونا مِن الخالدين} آدم حلف لابليس بالأيمان المُغلّظة لأبينا آدم استدراجاً وخديعةً لآدم للأكل مِن تلك الشجرة.
● خلاصة موجزة لِما جاء في [تفسير البرهان: ج3] بشأن ما قاله إبليس لآدم وهو يحلف الأيمان المُغلّظة ليخدع آدم:
الخلاصة هي : أنّ إبليس في حِوراه مع أبينا آدم قال لآدم: إنَّ الله يُخرجك من هذه الجنّة (باعتبار أنّ آدم خُلِقَ للأرض).. وأنا كُنتُ مُستأنساً بِوجودكَ هنا، فإذا أردتَ أن تبقى يا آدم في هذه الجنّة ولا تذهب إلى الأرض، فعليكَ أن تتحوَّل إلى مَلَكٍ مِن الملائكة (مع أنّ الملائكة سجدتْ لأبينا آدم، ولكن هكذا هي الوسوسة، وهكذا يسقط الإنسان في حبائل إبليس). قال له: عليكَ أن تتحوَّل إلى مَلَكٍ مِن الملائكة، أو أن تكون مِن الخالدين، والخالدون مَجموعةٌ مُميزة يَعرفها آدم ويعرفها إبليس. (الخالدون هم مُحمّدٌ وآل محمّد).
■ {وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين} المقاسمة هي الحلف المتكرر المؤكد. {فدلاهما بغرور - أي خدعهما - فلمّا ذَاقا الشجرة - اقتربا منها - بَدتْ لهما سَوآتهما وطَفِقَا - أي بادرا وأسرعا - يَخْصِفان عَليهما مِن وَرَقِ الجنّة وناداهما ربُّهما ألم أنهَكُما عن تلكُما الشجرة وأقلْ لكما إنّ الشيطان لكُما عدوٌ مبين* قالا ربّنا ظلمْنا أنفُسنا وإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين* قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مُستقرٌّ ومتاع إلى حين}
● { وطَفِقَا يَخْصِفان عَليهما مِن وَرَقِ الجنّة} طَفِقا: أي بادرا وأسرعا، أحسّا بالسُوء الذي طرأ عليهما، ومعنى يخصفان: أي يُلصقان ورق الجنّة بعضه مع البعض الآخر كي يستران أنفُسهما وما بدا من سوآتِهما.
● {اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مُستقرٌّ ومتاع إلى حين} الذين هبطوا إلى الأرض (أبونا آدم، أُمّنا حوّاء، وإبليس) وقوله: {بعضكم لبعض عدوّ}. عداوة إبليس مع أبينا آدم وأُمّنا حوّاء واضحة.. إنّها عداوة الضلال والهُدى، الكُفر والإيمان.. أمّا عداءُ أبينا آدم وأمّنا حوّاء فالحديثُ هُنا عن الطِباع البشريّة وما يجري بين الناس من ولُد آدم.
فالآية لا تتحدّث فقط عن عداء إبليس لأبينا آدم وأمّنا حوّاء.. وإنّما تتحدّث أيضاً عن الطِباع البشريّة من العداء التي تجلّت في أبناء آدم.
✤ وقفة عند الآيات من سورة البقرة التي تحدّثت عن قصّة أبينا آدم، وعن تفاصيل ما جرى في هذا البرنامج المُفصّل (برنامج الخلافة على الأرض) الآيات تبدأ من الآية 30 وما بعدها:
● {و إذْ قالَ ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيها ويسفِكُ الدماء ونحنُ نُسبّح بحمدكَ ونُقدّس لكَ قال إنّي أعلمُ ما لا تعلمون}. فالبرنامج والمشروع كان مِن البداية أن ينزل آدم إلى الأرض.. إلى الآن ما كملتْ خِلقة آدم وما تمّتْ..

هذا عرضٌ وبيان للمشروع على الملائكة، ولِذا قالوا: {أتجعل فيها مَن يُفسد فيها ويسفك الدماء} وقد علموا بذلك لأنّ أجيال وأمم سابقة كانت على الأرض قبلنا (وقبل آدمكم هذا إثنا عشر ألف آدم..) كما جاء في الروايات. فالملائكة علموا مِن الأجيال السابقة، هذا مِن جهة.

ومن جهة ثانية: علموا مِن طبيعة هذا المخلوق (إنّه خليفة في الأرض) والأرض عَالمٌ سُفليٌ محدودٌ ضيّق، وليس كالعالم العُلوي.. فسوف تصطدمُ فيه الرغبات، وسوف تتعارضُ فيه الاتّجاهات فيما بين أولئك الذين سيَقطنون على تُرابها.. فالمصالح والمنافع والأهداف والأغراض لِضيق هذهِ الأرض سيصطدمُ بعضها بالبعض الآخر..!

وإنّ الملائكة تستشرف الغَيب، خصوصاً الملائكة التي لها تلك المنازل العالية (الملائكة الأركان، والملائكة التي تملك التدبير). هؤلاء الملائكة يستشرفون الغَيب، وعلمهم علمٌ واسع في مَراتبهم العالية، ولِذا قالوا: {أتجعلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيها ويسفِكُ الدماء ونحنُ نُسبّح بحمدكَ ونُقدّس لكَ}

وقد ورد في بعض الروايات إنّهم بهذا الاعتراض يتحدّثون عن دماء الحسين.

وحتّى لو لم ترد روايات في ذلكَ، فالمنطقُ في أجواء الكتاب والعترة يقول ذلك.. الملائكة هُنا يعترضون على أمرٍ يُريده الله تعالى ويُبرّرون اعتراضهم أو استفهامهم بدم سيُسفك.. فأيّ دم هذا الذي يدفع الملائكة أن يعترضوا على الله أو يستفهموا عن حكمة الله في هذا المشروع.

وهل يُستفهَمُ عن حكمة الله، لو لَم هناك من شيء أربك تفكير الملائكة وأربك ما كانوا يعيشون فيه مِن حالةٍ نفسيّة..؟!

ليس هناك إلّا دمٌ واحد: إنّها دماء محمّد وآل محمّد، ودمُ الحُسين هو العنوان.

● ما العلاقة بين سفك الدماء، وبين التسبيح والتحميد والتقديس..؟

طعام الملائكة هو التسبيح والتحميد والتقديس والتهليل.. هذا هو طعامهم، فالملائكة لا يأكلون كما نأكل، ولا يشربون كما نشرب.. وهذا التسبيح والتحميد تعلّموه من محمّد وآل محمّد "صلواتُ الله عليهم" كما تُحدّثنا بذلك الروايات (كان الله ولم يكن معه شيء، ثُمّ كانت الكلمة (إنّها الحقيقة المُحمّدية) كانت هي وتجلّياتها، ثُمّ كانت الأشياء ومنها الملائكة، وحِين سبّح محمّدٌ وآل محمّد سبّحت الملائكةُ بتسبيحهم.. فالملائكة تعلّموا التسبيح منهم وبأسمائهم سبّحوا.. كما نقرأ في زياراتهم الشريفة: (بكم تُسبّح الأرض التي تَحمل أبدانكم)

الربط بين الدماء وبين التسبيح والتقديس لأنّ التحميد والتقديس هو صِلتهم بالحقيقة المُحمّدية، والدماء هذه دماء الحقيقة المُحمّدية..!

■ {وعلم آدم الأسماء كلّها} ليس المقصود من "الأسماء" هنا الألفاظ.. فليس فضلُ آدم على الملائكة أن يحفظ ألفاظ كما يتصوّر البعض، فهذا تصوّر ساذج. تعبير الأسماء هُنا هو (مُصطلح) الأسماء هُم محمّد وآل محمّد. الله سُبحانه وتعالى سمّى نفسه بإسمه الأعظم الأعظم الأعظم الذي خَلَقهُ فاستقرّ في ظلّه فلا يخرجُ منه إلى غيره.. هكذا سمّى اللهُ نفسه، وهذا المضمون واضح في الأدعية والروايات. وهذا الإسم الأعظم الذي سمّى نفسه به تعالى، تجلّتْ منه الأسماء الحسنى، والإمام الصادق يقول: (نحن الأسماء الحسنى) وسيأتي الحديث عن الأسماء الحُسنى في هذه السُورة المُباركة.

فأسماء الإسم الأعظم التي تجلّت في هذا العالم في الأرض هُم مُحمّد وآل محمّد.

● حين سَجدَ الملائكة كُلّهم لآدم لم يكن سُجودهم لأنّ آدم يَعرفُ ألفاظاً.. هذهِ سذاجةٌ في التفسير، وقد تسرّبتْ إلى علمائنا ومراجعنا مِن المناهج المُخالفة لأهل البيت. الأسماء هُنا عنوانٌ ومُصطلحٌ لِمُحمّد وآل محمّد

محمّدٌ وآل محمّد مَظاهرهم لا تُعدُّ ولا تُحصى.. واللهُ تعالى أطلعَ أبانا آدم على قَبَسٍ مِن مقاماتهم، وإلّا فأمر محمّد وآل محمّد لا يحتمله لا مَلَكٌ مُقرّب ولا نبيٌ مُرسل، وآدم كان نبيّاً ولم يكن مُرسلاً.. فما اطّلعَ عليه كان بِحسبه، وحتّى الملائكة اطّلعوا على ما اطّلعوا عليه بِحسبهم، وإن كان لأبينا آدم مِن فضل وللملائكة مِن فضل، فذلك بفضلهم "صلواتُ الله عليهم".

● الآية تقول: {وعَلَّم آدمَ الأسماء كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم على المَلائكة فقالَ أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إنْ كُنتم صادقين} الأسماء مُؤنّثة لفظاً، ولهذا قالتْ الآية {كُلَّها} ولم تقل {كُلّهم} بجمع الذكور.. هذه المظاهر التي كانت تُناسب حقيقة أبينا آدم.

لاحظوا تعبير "عَرَضهُم" فقد استُخدِمَ هُنا ضمير المُذكّر.. يعني عرض هذهِ الوجودات والحقائق على الملائكة، والتعبير بِضمير المُذكّر يُفيد التَغليب (يعني أنّ فاطمة الزهراء داخلة في هذا التعبير) مثلما جاء في آية التطهير، فالخطاب في آية التطهير مُذكّر وفاطمة الزهراء هي سيّدةُ آية التطهير.

● حينما نذهبُ إلى الدعاء المروي عن إمام زماننا "صلواتُ الله عليه" في شهر رجب: (اللّهم إنّي أسألكَ بمعاني جميع ما يدعوكَ به وُلاةُ أمْرِكَ المأمونونَ على سرّك، المُستبشرونَ بأمركَ، الواصفون لقُدرتِكَ، المُعلنونَ لعظمتك، أسألكَ بما نطقَ فيهم من مَشيئتكَ..) كُلّ هذه الضمائر هي للمُذكّر. الدعاء يقول (بما نَطَق فيهم) فهذا الضمير هُنا للمُذكّر.

(فجعلتهُم معادن لكلماتك، وأركاناً لتوحيدكَ وآياتكَ ومقاماتِكَ التي لا تَعطيلَ لها في كلّ مكان يعرفك بها مَن عرفك، لا فرق بينكَ وبينها إلّا أنَّهم عِبادُك وخلْقُك..) النظرُ واللّحاظُ هنا إلى تجلّياتهم وإلى شؤوناتهم.. فما بدا لآدم هي تجلّياتٌ منهم.

■ الآية تقول: {فقالَ أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إنْ كُنتم صادقين} فتعبير "هؤلاء" يُشير إلى مَجموعة، وليس الحديث كما يقولون عن جبال وأنهار وغير ذلك، فهذه الجمادات والأشياء لا يُعبّر عنها بصيغة "هؤلاء".. صِيغة "هؤلاء" تتحدّث عن حقائق ووجودات مُذكّرة.. وقول الآية: {إن كنتم صادقين} أي إن كُنتم صادقين في علمكم وتوقّعكم، وإلّا فالملائكة لا يكذبون، ولكنّهم يُمكن أن يجهلوا فعلمُهم محدود.

● {قال يا آدم أنبئهُم بأسمائهم فلما أنبأهُم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيبَ السماوات والأرض وأعلمُ ما تُبدون وما كُنتم تكتمون}

تعبير {وما كُنتم تكتمون} قد تكون إشارة إلى ما يكتمه إبليس في نفسه.

الروايات تُحدّثنا أنّه حين كان آدم جسداً مِن طين، ولم تكن الروح قد نُفختْ فيه كان إبليس يمرّ بجانبه ويقول: لأمرٍ ما خُلْقت. (يعني لشأنٍ عظيمٍ خُلِقتْ) فقد كان يتنبأ بالداهية التي حلّت به.

وتستمرّ الآيات إلى الآية 37: {فتلّقى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنّه هو التوّاب الرحيم} تَلقّى هذهِ الكلمات حِين هبط إلى الأرض، والكلمات مذكورة في هذا الدعاء: (يا محمود بحقّ أحمد، ويا عالي بحقّ علي، ويا فاطر بحقّ فاطمة، ويا مُحسن بحقّ الحسن، ويا قديم الإحسان بحقّ الحُسين). هذه كلماتُ أبينا آدم التي تاب الله عليه بها.

✤ مرور سريع على آياتٍ من سورة طه تناولتْ قِصّة أبينا آدم وأمّنا حواء كي تكون الصورة واضحة بين أيديكم.

● {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما}. هذا العهد هو عهد الولاية، هذا هو منطق ثقافة الكتاب والعترة، فالعهد الذي أُخِذ على أبينا آدم هو عهد الولاية.. والآية هنا تُنبّهنا إلى أمرين، وأنّ مُشكلة الإنسان مع آل محمّد في هذين الأمرين:

● الأوّل: النسيان.

● الثاني: ضعف الهمّة.

نحنُ بِحاجة إلى تَذكّر دائم، وبِحاجة إلى همّة عالية. كما نقرأ في سُورة الأعراف {كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرىٰ للمُؤمنين} المُؤمنون هم الأولياء أمثال سلمان، هؤلاء يكون الكتاب ذكرى لهم.. أمثالنا هم الذين ينسون.

هذان الأمران هُما الأمران القَاتلان لنا في عَلاقتنا بإمام زماننا.. ولِذا الإمام في رسالتهِ للشيخ المفيد يقول: (إنّا غيرُ مهملين لِمراعاتكم، ولا ناسين لِذكركم) لأنّ الشيعة ناسية.. لأنّنا مُهملون، والإهمال يأتي من عدم الهِمّة.. حِينما يكون الإنسان ضَعيف الهِمّة يَكون مُهْملاً كسولاً، عاطلاً، أمّا قويّ الهِمّة لا يكون مُهملاً وإنّما يكون مُتَّقداً ومُتوهّجاً.

● مُشكلتنا في نقطة واحدة أنّنا لا نملكُ الحماس العقائدي..! وأنا لا أتحدّث عن حماس عسكري، ولا أتحدّث عن حماس يُسبّب الضجيج والعجيج.. وإنّما أتحدّثُ عن هَمّ وهاجسٍ على طُول الخَطّ يحمله الإنسان بين جوانبه هو الذي يُحركّه بشكل صحيح.. كما جاء عن صادق العترة "صلواتُ الله عليه": (نَفَسُ المَهموم لِظُلمنا تسبيح، وهمّه لنا عبادة، وكتمانُ سِرّنا جهادٌ في سبيل الله). هذا الهم لِظُلمهم قد يشتدّ وقد يفتر.. وقول الإمام (وهمّه لنا عبادة) هذا الذي يجب أن يبقى على طول الخطّ.. والإمام الصادق يقول عن هذا الحديث أنّه يجب أن يُكتب بماء الذهب.

وماء الذهب هو ماءُ القلوب هو الماء الذي يُكتب بهِ على القلوب، حتّى تبقى هذه المَعاني مُتقدّة وبرّاقة ولمّاعة في القلوب.

● {فنسي ولم نجد له عزما} هذا جُزء من التكوين البشري.. فنحنُ بحاجةٍ إلى طبيعة النسيان.. لن نستطيع أن نعيش في الأرض من دون النسيان، النسيان نعمة.. ولكن لا أن نُسلّط النسيان على علاقتنا بإمامنا زماننا.

■ {وإذ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى* فقُلنا يا آدمُ إنّ هذا عدوّ لكَ ولزوجكَ فلا يُخرجنّكما مِن الجنّة فتشقى* إنَّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى* وأنَّكَ لا تظمأُ فيها ولا تَضحى - كناية عن التعب -* فوسوسَ إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرةِ الخُلْد ومُلْكٍ لا يبلى* فأكلا منها فبدتْ لهما سَوآتهما وطَفِقَا يَخصفَان عليهما مِن ورقِ الجنّة وعصى آدم ربّه فغوى * ثمّ اجتباه ربّه فتابَ عليه وهدى* قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى}

● {فلا يُخرجنّكما مِن الجنّة فتشقى} لأنّ الجنّة التي عاش فيها أبونا آدم كانت مُريحة، الشقاء في الأرض، لأنّ طبيعة عالم الأرض بما فيه من النقائص ومن الإضافات والاصطدامات بين أمور هذا العالم.. كُلّ ذلك يُؤدّي إلى الشقاء. الآيات تتحدّث عن قصّة الإنسان في تَكوينه الجَسدي (في أعضائه التناسليّة)، وفي تكوينه النفسي - كما تمّت الإشارة إلى النسيان، وإلى الغواية (فعصى آدم ربّه فغوى) -

✤ في سورة ص في الآية 73 وما بعدها: {فسجدَ الملائكةُ كُلّهم أجمعون* إلّا إبليسَ استكبرَ وكان مِن الكافرين* قال يا إبليسُ ما منعكَ أن تسجدَ لِما خلقتُ بيديّ أستكبرتَ أم كُنتَ مِن العالين}

■ وقفة عند [تفسير البرهان: ج6] في معنى هذه الآيات جاء فيه:

(عن أبي سعيد الخدري قال: كنّا جلوساً عند رسول الله، إذ أقبل إليه رجل، فقال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ لإبليس: {أَستكبرتَ أم كنتَ مِن العٰالين} مَن هم يا رسول الله - العَالين - الذين هُم أعلى مِن الملائكة المُقرّبين - ولم يُؤمروا بالسجود لآدم -؟ فقال رسول الله: أنا وعليّ وفاطمة والحسن والحسين، كنّا في سُرادق العرش نُسبّح الله، فسبّحتْ الملائكة بتسبيحنا قبل أن يخلق الله آدم بألفي عام. فلمّا خلق الله عزّ وجل آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له، ولم يُؤمروا بالسجود إلّا لأجلنا - لِما تجلّى في آدم مِن نورنا - ، فسجدتْ الملائكة كلّهم أجمعون إلّا إبليس فإنّه أبى أن يسجد. فقال الله تبارك وتعالى: {يا إبليس مٰا منعك أن تسجد لِما خلقتُ بيدي أَستكبرتَ أم كنت مِن العٰالين} قال: مِن هؤلاء الخمسة المكتوبة أسماؤهم في سُرادق العرش، ثُمّ قال رسول الله: فنحنُ باب الله الذي يؤتى منه، بنا يهتدي المهتدون، فمن أحبنا أحبّه الله وأسكنه جنّته، ومَن أبغضنا أبغضه الله وأسكنه ناره ولا يُحبّنا إلّا مَن طاب مولده)

● ما قالته الملائكة في سورة البقرة آية 30 {ونحن نُسبّح بحمدك ونُقدّس لك} هو هذا نفس التسبيح الذي أشار له رسول الله.. والملائكة عرفت أنّ دماءً حُسينية ستُسفكُ على الرمال لذلك ضجّت الملائكة فقالت ما قالت.

● هؤلاء العالون الذين يتجلّى ذكرهم ودينهم وقرآنهم في ذاتٍ عليّةٍ عالية عنوانها (عليّ) وقصّة آدم تدور حول عليّ.. هذا عهْدُ الولاية العَلوية..{ولقد عهدنا إلى آدم...}. وحين نزل إلى الأرض كان همّ إبليس أن يقطع الطريق على أبناء آدم في أن يَفوا بعهد الولاية العَلَوية، ولهذا قال إبليس لعنه الله: {قال ربّ بما أغويتني لأُزيّننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين* إلّا عبادكَ منهم المُخلَصين* قال هذا صراطٌ عليّ مُستقيم}

وهذهِ الآية {قال هذا صراط عليّ مُستقيم} تُقرأ في قراءة أهل البيت بهذه الصورة: {قالَ هذا صراطُ عليٍّ مُستقيم}

فهؤلاء العالون الخالدون هم الذين يمنحون الخلود لنا.. عليٌ هو الذي يُدخِلُ أهل الجنّة في الجنان ويقول لهم "خلودٌ خلود"، ويُدخِل أهل النار في النار ويقول لهما "خلودٌ خُلود".. فالخلود الحقيقي هو لِمحمّد وآل محمّد "صلواتُ الله عليهم".

وصراطُ عليّ يتجلّى في الولاء لعليّ وآل علي، وهذا لا يتحقّقُ إلّا أن نكون في فناء إمام زماننا "صلواتُ الله عليه" ولِذلك نُخاطبه في زيارتهِ الشريفة فنقول: (رضيتُكَ يا مولاي إماماً وهاديا، ووليّاً ومُرشدا، لا أبتغي بكَ بَدَلا، ولا أتّخذُ مِن دونكَ وليّاً، أشهد أنّك الحقُّ الثابتُ الذي لا عيبَ فيه، وأنَّ وعْدَ الله فيكَ حقٌ لا أرتابُ لطول الغَيبة وبُعْدِ الأمد، ولا أتحيّرُ معَ من جَحَدَكَ وجَهلكَ وجهل بكَ، منتظرٌ متوقّعٌ لآياتكَ، وأنت الشافعُ الذي لا يُنازَع، والوليُّ الذي لا يُدافَع.... أشهدُ أن بولايتكَ تُقبَل الأعمال، وتزكّى الأفعال وتُضاعفُ الحسنات وتُمحى السيّئات، فمَن جاء بولايتكَ واعترف بإمامتكَ قُبلتْ أعمالهُ وصُدّقتْ أقواله، وتضاعفتْ حسناته، ومُحيتْ سيّئاتهُ، ومَن عَدَل عن ولايتكَ، وجَهِل مَعْرفتكَ، واستبدلَ بك غيركَ، أكبَّه اللهُ على وجههِ في النار ولم يَقبل لهُ عملاً ولم يُقم له يومَ القيامة وزنا، أشهدُ الله وأشْهِدُ ملائكته وأشهدك يا مولاي بهذا ظاهِره كباطنه وسرّه كعلانيته وأنتَ الشاهد على ذلك وهو عهدي إليك وميثاقي لديك).